

العلم والاجتماع

رسالة المقتطف وأثره

لإسماعيل مطهر

أوقف الدكتور بقوت صروف حياته على خدمة العلم ، متخذاً من المقتطف ، التي تكمل بهذا العدد منها الستين ، ميداناً لحولاته الواسعة ونظراته الثاقبة وجهوده المتواصلة . ولما بدل على أنه أوقف حياته على العلم ذلك الصبر الطويل والایمان الثابت بما سوف يكون للعلم من شأن في الشرق العربي ، في زمان كان كل ما حوله ظلام دامس ، وجهل عميم ، وخطبة ضاربة بجرانها على كل نواحي الشرق ، عند ما أرسل من المقتطف أول شعاع من أشعة النور اخترق تلك الظلمات ، وكان ذلك منذ ستين سنة خلون ، حتى فارق هذه الحياة ، وهو مؤمن بقداصة الرسالة التي يؤديها لاهل حيله وللأجيال المقبلة ، إيمانه بها منذ ان بدأ الصل لها

ويكفي ان تنظر على الحالات التي قامت في الشرق في اواخر القرن التاسع عشر ، لترى ان الدولة العثمانية ، رجل أوروبا المريض ، كانت على فراش الموت تنزع الروح نزحاً اليها طويلاً ، ودولان أوروبا من حولها كأنهن نسوراً يبشحن حجة حامدة ، فتقطع منها الهبرة يد الهبرة ، وتلقم منها العيونة بعد العيونة ، والعالم العربي في سبات لاه عن كل ما هو قائم من حوله من شؤون الدنيا ، والجناسية تنخر في عظامه ، وسوء الحكم يحلل من اوصاله ، ويضرب في اصوله ، ضرب جبار قوي الاصلاح

قال كاتب تركي : « لقد عودنا ان نلقن باتا عبيد الملك ، فلل الله من فوق الارض ، وانا له ملك ومتاع . وهذا يتضمن ضرورة الاعتقاد بأنه ليس عندنا من شيء يمكن ان يقاوم خليفة الله المتربع من فوق عرش الارض ، وانه لن يكون لنظام اجتماعي أثبت اصولاً من نظامنا ، ولا حياة دينية أسعد ولا أمتع من حياتنا . بينما كانت الحقائق الملغوسة توحى اليناكل حين بان في انحاء مملكتنا فقراً وجوعاً ، وان جزءاً بعد جزءاً من اطراف عاهليتنا يؤخذ عنوة ورغماً منا ، نهباً واغتصاباً . وكانت لنا حكومة هي أضف من احط الحكومات الاوردية ، متزدية في حجة الرشوة ، متككة الاوصال ، مضطربة الاحوال ، بيده عن حكم الشرائع والآداب »

في ظل هذه الحكومة نشأ يقوب صروف قانس بالعلم في بيضة كفرت به ، وآمن بالانسانية في محيط انكرها ، وآمن بالعقل في ظل نظام لم يتم الا على السموات ، بل على آخس السموات . وكان من الطبيعي ان لا يجمع الايمان بشيء والكفر به في وسط واحد ، فاعتزلم وعط مصر ، فحنت بحرياتها واوسعت المجال لكفائاته العليا ، فأفرغ في سينها كل ما أودعته الطبيعة من قوة الروح وسلامة الفتل وقوم الخلق ، وحلف لها من بعده رأياً تتوارثه الاجيال ثم الاجيال

وفي ذلك الوقت قصر العلم في أنحاء العاهلية الثمانية على ما كان يتلقى بين جدران المساجد والتكايا من ضروب البدع التي دخلت الدين الاسلامي الخفيف ، وعكف الفقهاء وطلاب العلم على درس فروع من الفقه الاسلامي ما تزل بها كتاب ولا جرت بها سنة ولا سلم بها عقل . كأن يدور الحوار بين الفقهاء مثلاً في ان بقرة ولدت عجلاً ينكم وحفظ القرآن ، أيجوز أن يصلي بالناس جماعة يوم العيد ؟ وهل يصح ذبحه وأكل لحمه بعد أن يؤدي بهم هذا الفرض إماماً ؟

وفي جو هذه الظلمات التي تساقطت على العالم الشرقي كسفاً شديدة السواد ، اخذ المنتصف يشير للناس عذهب النشوء والارتقاء وأخذ يضلح من الملحمة القائمة من حول نظرية النشوء ونظرية الخلق المستقل ، وينقل آراء دارون وهكسلي ويناقش في آراء سنت جورج ميشارت مقارنهما الميذ وخصهما اللدود ، ويصير لنظرية النشوء والقول بان الانسان منحدر من صورة من البشرات احط من صورته التي تلابسه الآن ، واتناس يرمونه بالكفر ويقولون بان المنتصف إنما يدعو الى القول بان الانسان اصله فرد ، على الضد مما تقضي به حقائق العلم ونظريات التطور نفسها ، ويستند الججاج بين الكتاب ويشمر اليد جمال الدين الافغاني عن ساعده ويغضي مبشراً بمذاهب خرقاء في العلم الطبيعي ويناقش في اشياء لا علم له بمخافتها ولا اتصال لثقافته بها ، ثم ينجلي الفبار الذي يثيره عن أن رأس البرغوث اذا نظر من خلال مجهر ظهر كأنه رأس نيل ، فهل يدل ذلك على ان القبل اصله برغوث تضخم واتضح ، ثم تدرج في التضخم والاتفاخ حتى صار فيلاً !!

يمثل هذه الثقافة ، وبهذا القدر من الاستتارة ، كانت تناقش حقائق العلوم الحديثة التي يشير بها المنتصف لاهل الحليل الماضي . وما كان الذين يملون هذا الميل في مناقشات تدور حول نظريات حديثة ، قنبا الكيرون من اهل اوربا يتحفظ شديد ، ان يكونوا يوماً من الايام عوناً على تحرير الافكار أو محاربة البدع أو صرف الناس الى متجهات جديدة تقلم من العقيدة القديمة التي ورنوها من فرون الظلامية القديمة Obscurantiam بما فيها من تصوفية مريضة أو كلابية تقوم على الفروض الذهنية ، أو يعملوا يوماً على قنوم الخلق الانساني بما تقتضيه الانقلابات الفكرية والتصويرية التي خلقها العلم الحديث ، أو يدركوا ان لهذه العلوم اثرأ في بحث حالات الاجتماع وتأثر الجماعات بمختلف ما في الطبيعة من مؤثرات

وكانت جماعات الشرق التأم في ذلك الحين ، قد انحلت روايتها الاجتماعية انحلالاً عظيماً ، ظهر أثره في خضوع هذه الامم لضروب الاستبداد الشديد والمظالم العتية التي انزلت بها انسى ما يروي التاريخ من كوارث وعلات . واحاطت بها امم أوروبا احاطة السوار بالمعصم ، تبث فيها دعايات مختلفات ، مكن لها ذلك الاعلان الاجتماعي ان تجد البيئة الصالحة للنماء والتمكن من طابع اهل الشرق ، حتى لقد زين لاهل الرأي ثناء ، ان تلك الزخارف التي وصلتنا عن أوروبا انما هي طريق الرقي والساد ، وسبيل القوة والاستقلال ، في حين انها كانت العامل الذي قطع ما بيننا وبين ماضينا وحل آخر عقدة كانت تربطنا بثقافتنا القديمة واخلاقنا القومية ، بعد ان عملت فيها يد الجور ما عملت ، وبعد ان غشينا من غشلة الحكومات ما غشينا .

وقد يقادر الى البعض ان مظاهر الرقي الذي يدؤ في افق كثير من امم الشرق في هذا العصر انما يرجع الى الدعايات السياسية او الى الصيحات التي قام بها بعض اصحاب الوطنية المثية على ما لهم فيها من فضل ، وما خلفوا فيها من أثر . ذلك بأن الدعايات السياسية في الامم المتحضرة لن تجد لها سبيلاً الى القلوب أو العقول ما لم يتم في الاقن والاذهان حالة تحفز الجماعات الى العمل لاسترداد ما فقدت والاستماع بما يستمع به غيرها من الناس ، فان حياة الامم وقياسها من حيث الرقي أو الفساد ، انما يكون دائماً بقدر تصوراتها . واذن تكون مظاهر الحياة اشباحاً معكوسة في الخارج من محل ما يقوم في الذخيرة الجماعية من تصورات . وعلى قدر هذه التصورات يكون الخافز الذي يحفزها الى العمل . ولا شك في ان التصورات تقوم على العلم بما هي الحياة ، وكيف يجب ان تكون ؟ وعلى قدر العلم بالشيء تكون ماهية التصور الذي يقوم في الاذهان وما كان لئان نسي أن تصوراتنا القديمة قامت على اشيء بعدت عن العلم الطبيعي وعن علاقة الاحياء بالبيئة التي ينشأون متأثرين بهوائها . ولقد ظن الشرق العربي قروناً طويلاً ان تصوراتهم على ما تضمنت الكتب القديمة من نظريات وقروض ، بعدت عن الطبيعة ، بعد الطيعة عن ان تكون على قدر تلك العقول التي وضعت تلك الكتب . فظلت شعوب الشرق واثقة والدينا من حولها تدور ، وانطوت في داخل تلك الصدقة التي أحكم اغلاقها تصورات الذين اقبلوا في وجه هذه الامم باب الاجتهاد ، فأوصدوا على العقول ابواباً فولاذية ، اتخذوا من مشاعر الجماهير وتصورات الجماهير وسيلة لايجادها ، فنزلوا بالعلم والدين وبالاخلاق وبكل ما سمى وجل من معاني الحياة ، الى مستوى ما تسع فيها احلام الجماهير واهل الجمل والفيلة من اصحاب التنود والامراء والملوك ، انعام بتحقيق ما رب دينا ، واستجابة لفتية مريضة متعبة ، سوذوها على كل فضيلة ، وضحوا لها بكل معاني البر والتقوى

ولقد تناصرت على شعوب الشرق كل القوى التي كان من الواجب ان تأخذ بيدها : ملوكها

وامراؤها وحكوماتها والمسيطرون على الثقافة فيها . لهذا ترى ان قوة الدفع الى الهاوية كانت اعظم من ان تستقوى عليها شعوب مظللة مستعبدة اسلمت بأمور دينها الى المستبدين ، وبأمور آخرها الى من لم يفكروا يوماً في ان يوحوا الى تلك الشعوب بأن لها ماضياً ، وان لها من العلم والادب والقوة رأياً ، هو في الحياة شادتها وعاصها الذي ليس لها من عاصم سواء . ولقد ظلت هذه الشعوب القرون تنو القرون مستغية لحكم المستبدين راضية بأن تهب وتستل ، قائمة من الحياة بكسرات من الحبز ووشل من الماء . فأى حافر ذاك الذي حفزها الى النظر في الحياة هذه النظرة الجديدة ، ووجهها هذا التوجية الانساني ، وجعلها تنظر الى الحياة نظر الموقن بأن لها فيها حقاً وان من حقها ان تفكر وان تكون حرة في تفكيرها وفي ان تختار من الحياة الوجه الذي يرضها ؟ اي عصا سحرية ضربت تلك الشعوب تلك الضربة التي ايقظها ونهتها من سبات القرون المتطاولة ؟ لا شك في انها عصا العلم . فان العلم حر مطلق من القيود ، لا يؤمن الا بصدق ، فاذا آمن كان ايماناً راسخاً وطيبداً . هذا خلق العلم . وهذا هو الخلق الذي يرسد الايمان الثابت بكل ما ينزل من العقل منزلة الاحترام والتقدس

ولقد كان من اُرد ذلك ان شعوب الشرق قد نشطت الى العمل المجدي في سبيل تنظيم العلاقة التي تقوم بين الحكومة والمحكومين على اساس العقل والمصلحة العامة ، وأخذت تقاوم التفوذ الفردي مقاومة ظلت في كل الحالات رهناً على الظروف . فظهرت جنباً في ثوب حركات اصلاحية ، وحيناً آخر في صورة ثورات أجهت نحو تقرير حقوق مدنية وسياسية حرمتها الشعوب ازماناً طويلة . ومن شأن العلم ان ينظم العقل وينظم الشهوات وينظم الماطمع . ذلك بأن العلم يقوم على حقيقة اساسية هي تنظيم الصلات القائمة بين الحقائق تنظيمياً يحدد لكل حقيقة منها موضعها الخاص الذي تشغله في نظام الاشياء . وعلى الجملة اخذ المصلحون انقائمون على هداية هذه الشعوب ينظرون من الشؤون الاجتماعية والسياسية على مقتضى ما يقوم في عقولهم من تصور العلم وتنظيمه للعقل تنظيمياً لا تضارب بين حقائقه ولا طينان لثاجة منه على اخرى . فظهر ذلك مكروساً في كل ما عملوا وسيظهر في المستقبل لاساً ثوباً جديداً من المرونة التي يمتاز بها الاسلوب العلمي ، على قدر ما سوف يكون للايمان بالعلم وآسانيه من اثر في حياة الجماعات على اتمال انقص بذلك ان العلم اصبح المسيطر الاول على حالاتنا الاجتماعية ، أو ان كل المصلحين الذين قاموا في الشرق ومنهم اجتماعيون وسياسيون ، قد تفهموا بفق العلم الصحيح ، او ان الشعوب اتسمت بقدركتيريتها بالعلم على قاعدة عامة رشيدة . وانما جل ما نقوله ان انتشار الاسلوب العلمي في التفكير والادب ونشر الحقائق الثابتة التي توحى بها طبيعة الاشياء ، قد حوّل التفكير في حق الشعوب من الحياة ، وزاد الضنط على الحكومات المستبدة ، فجعلها تشر

بأن من الضروري ان تكيف موقفها ازاء المحكومين تكيفاً يتفق والاتجاه الجديد الذي اتجهت فيه العقول ، وجرت فيه الميول والمواطف ، اتقاء الارعجاج الاجتماعي والثورات الانفجائية ونسوف نجد مؤرخ المستقبل ، اذا اراد ان يقف على الاسباب التي هيأت الظروف لظهور هذه المتجهات الحديثة ، انه امام مشاكل اجتماعية عميقة ، لا بد له من الاكباب على دروسها من طريق العلم . على انه سوف يجد في علوم الاحياء وعلامتها بالوسائل الاجتماعية مرشده الامين الذي يثير له سبيل البحث في الحركات السياسية والاجتماعية التي قامت في خلال نصف قرن كامل ، سلخ جزءاً من القرن التاسع عشر ، وجزءاً من القرن العشرين . وسوف يرى ان تحليل الكثير من مظاهر التطور الاجتماعي التي حدثت في مدى هذه الفترة ، استطاع من سبيل واحد ، هو الاكباب على درس المبادئ التي قررها العلم في عقلية الاجماعات وفي علم النفس التحليل والاجتماعي

عنى ان الشرق ان اراد ان يخطو الى الامام خطوات واسعة في سبيل الارتقاء الحقيقي وان يضرب في معارج التطور الثابت نحو حالات اسعد وأفضل ، فان من واجبه ان يجعل السياسة تابعة للعلم الاجتماعي ، انقائم على حقائق العلم الطبيعي . فان السياسة في الشرق قد قامت الى الآن على نظريات بعيدة عن الاسترشاد بهدى العلم ، ومضت تتخط في دياجير مظلمة من التقديرات والاعتبارات التي تقوم على غير اساس وطيد الدائم من حقائق العلم . وكل سياسة لا تقدر العلاقة القائمة بين المتجهات التي تلوح في افق الحياة الاجتماعية وحقائق الطبيعة الخفية من ورائها ، انما هي سياسة مرتجة غير ثابتة ، سياسة لا تؤمن معها الثورات ، ولا تسلم من الكبر والشطط فلا بد اذن من ان تربط بين السياسة وبين العلم ، وان تحمك الصلة بين السياسة وبين منهج اجتماعي تحذره ايماناً قائم به السياسة في الإصلاح المدني . غير ان الطريق الذي مضت فيه اكثر امم الشرق حتى الآن ، لم يدل بعد على ان هذه الحقيفة قد اتخذت مكانها اللائقة بها من عقول السياسيين والمصلحين . ودليلاً على هذا أن سياسة اكثر حكومات الشرق قد فقدت صفة اولى تجعل تنفيذ هذا المطلب ممكناً ، وتلك هي صفة الاستمرار . ومن أصعب الاشياء ان يكون للعلم أثر في بيئة تتقلب بها الاهواء . وتتقلب فيها دورات الحظ بين ساعة واخرى . وفقدان صفة الاستمرار في حياة اكثر الحكومات الشرقية هو السبب الاول فيما يقوم اليوم من مظاهر الانحلال الاجتماعي والتزوب الذي نستشره جانلاً في الاماني والاحلام التي تهاور اقس الشباب . ذلك بأن الاستمرار انما هو اتباع طريق مرسوم للإصلاح الاجتماعي يرمي الى غاية معلومة . فاذا فقدت السياسة هذه الصفة ، فقدت اعظم سداة تمكثها من تخليف الآثار التي استطاع من طريقها خلق حالات ثابتة ونظامات مستقرة ترضي مطامع شعوب استحدثت الاسلوب العلمي في عقليتها

طابعاً جديداً ، ووسمها بسمة لا عهد لها فيها ، وجعلها تنشد في الحياة غايات سامية ومثلاً علياً وقد يتبادر الى ذهن اولئك الذين أخذهم اليأس من إصلاح أزم الشرق أن ما نتكلم فيه لا يخرج عن نظريات قد يكون في تطبيقها ما يدل على انها أحلام بعيدة التحقيق . والحق انها تكون أحلاماً بعيدة التحقيق ، إذا نحن لم نؤمن بأنها طريق الخلاص الذي لا طريق سواه . فان الهجمات الانسانية باعتبارها كائنات حية من ناحية ، وباعتبارها كائنات ذات نظام اجتماعي من ناحية اخرى ، قد تصدق عليها حقائق علوم الاحياء مطبقة عليها تطبيقاً خاصاً ، كما تصدق على بقية الاحياء الاخرى . ولا اخال ان مفكراً أئتمن التقدير ينكر ان اتخاذ اسباب العلم وسيلة للإصلاح الاجتماعي ، هو السبيل التي تؤدي بأزم الشرق إلى وضع قواعد ثابتة تنتجها في التدرج نحو مثلها العليا

على ان من الواجب ان نفي ان لكل جماعة من الجماعات فطرة خاصة وبيئة بعينها ، وان لما مزاجاً تاماً هو نتاج الوراثة الطبيعية والعادات . اما إذا كانت حقائق العلم الطبيعي قد تصدق على كل الاحياء ، من حيث القواعد والاسس والنواميس ، فإن درس الحالات التي تقوم في كل امة من الامم من ناحية هذا العلم يجب ان نعتبر فيها الفطرة والبيئة والمزاج ، حتى يتخلص المصلحون اقوم طرق التطبيق وضرعوا من حالة كل شعب ما هو في احتياج اليه من ضروب الإصلاح ، ويلبسوا الحاجات الاولية التي يمكن ان تتخذ فيها حقائق بعينها من حقائق العلم سبيلاً الى معرفة ماهياتها . وهذا ما جرت أكترازم الشرق على عكس ما يروىه التاريخ . فقد مضت هذه الامم تسترشد باوروبا ، وتتخذ من حالات أوروبا قياساً تقيس عليه حالات الشرق ، من غير ان تميز الطبع الشرقي والمزاج الشرقي والبيئة الشرقية أدنى التفات . ومن اعجب الاشياء اننا مضيئنا نقلنا عن أوروبا نمار تطبيقها لحقائق العلم في نواحيها بحسب علنا ان زاعمي فيها مزاجنا الخاص وبيئتنا الخاصة ، وعرفنا عن ان نقلنا عنها مجاوبها في مسائل تصدق على كل البيئات وفي كل الاحوال . ومثلنا على ذلك اننا نقلنا مثلاً شرائع بعينها عن أوروبا لاعلاقة لها ببطنا ولا حاجة لبحثها ؟ وكذلك نقلنا عن أوروبا طرقاً خاصة في التعليم من غير ان نراعي فيها مقدار ملائمتها لفطرتنا او ثقافتنا التقليدية

ان ما مضيت فيه من اوجه البحث في هذه الججاة القصيرة فيه بشير ونذير . اما البشير فانا بدأنا نتجه في تحليل حالاتنا الاجتماعية ودروسها انجهاً عطياً . واما النذير ففي اننا لم نضع بعض مناهج إصلاحية ، قائمة على العلم ، لمصافة الاشرار والبقاء . والحصل ان الإصلاح الاجتماعي في ام الشرق ، ينبغي ان يهدى الى علماء اتصلوا بعلوم الاحياء وعلوم الاجتماع ، تلك العلوم التي كان للمعتطف الفضل الاول في توجيه العقول اليها ، وبث مبادئها في قلوب المفكرين